تمثلات القيم في كتاب وقعة الطف لأبي مخنف الأزدي (ت ١٥٧هـ) - دراسة بلاغية

The Embodiment of Values in Imam Hussein and His Companions (p.b.u.t.) Speeches According to Wak'et Al-Teff by Abi Makhnaf Al-Azdi died in 157 A.H. Rhetorical Study

م.م علاء عباس أمين نصرالله [١]

Assist. Lect. Alaa A. Ameen Nasser Allah

أ.د حربي نعيم الشبلي [٢]

Prof. Harbi N. Al-Shibli

الملخص

تعد واقعة الطف الخالدة زاخرة بالمواقف، وتعكس صور القيم النبيلة للامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه، كالمروءة والشجاعة والكرم والحمية والغيرة على الدين والعرض ومحض النصيحة، وبالعكس من ذلك لم نجد من هذه القيم لدى الاعداء سوى الحقد والقسوة والشتائم والشماتة وقتل الأسرى كما حدث مع نافع بن هلال الجملي، فتمثلت هذه القيم العظيمة بين أحرف كلام الامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه مع أعدائهم. وعند دراستي لتمثلات هذه القيم في كلام الامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه وجدته يوجز في موضع يستوجب الايجاز، ويطنب في موضع يستوجب الاطناب فيه؛ وذلك لكي يوضح الحقيقة التي أخفيت عن أهل الكوفة. إضافة الى استعماله لفنون علم المعاني، من استعماله (إنّ) والقسم ولام التوكيد لغرض لفت نظر المتلقي، ومن جانب آخر نجده استعمل في علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية لتأكيد المراد بأبلغ صورة للمتلقي، أما فنون علم البديع فكانت قليلة نسبياً؛ لأن الموقف لم يكن يحتمل التأني في استعمال

١- المديرية العامة لتربية كربلاء المقدسة.

٢- جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية.

الالفاظ والعبارات، بل كان الامام –عليه السلام–، وأصحابه يركزون على المعاني ومحاججة الخصوم، لذا فاستعمال الطباق كان محدودا، قياساً بالجناس الذي كان أكثر منه.

الكلمات المفتاحية : تمثلات القيم – واقعة الطف – فنون البلاغة العربية

Abstract

The Great Battle of Al-Teff is full of major events which reflect the moral values of Imam Al Hussein and his companions (p.b.u.t.) such as chivalry, valour, generosity, fervour, defending religion and honour as well as giving sincere advice. Conversely, these values couldn't be seen in his enemy front but malevolence, cruelty, swearwords and glee like what happened to Nafi'e bin Hilala Al-Jamali. We can find these values within the words of Imam Al Hussein and his companions (p.b.u.t.), thus he/they used to summarize or elaborate where necessary to uncover the hidden facts for the people of Kufa. Also, using semantics as the conjunction" إن", " vowing and" لام" " of emphasis to draw the listener's attention in addition to using the art of tropes such as metaphors, similes and metonymy to convey the sense as clear as possible.

Concerning the arts of rhetoric, they were rather few because the situation didn't need to focus on using terms or phrases as far as the gist and debating with their rivals, therefore, the usage of antithesis was limited as compared with alliteration

المقدمة

فواقعة الطف سنة ٦١هـ وما رافقتها من أحداث مؤلمة، على الصعيد الانساني، والديني لأن الامام الحسين –عليه السلام– يعد رمزاً دينياً لأنه حفيد الرسول الأكرم –صلى الله عليه وآله وسلم–، ثم صار رمزاً ثورياً ضد الباطل، وقائداً للاصلاح، وعنواناً للقيم العليا، المتمثلة بالمروءة، والوفاء، والمحبة، والتسامح، والامانة، والصدق، وعند البحث في تفصيلات الواقعة، التي نحفظها جميعاً، عبر مجالس العزاء التي تقام في ذكرى هذه الواقعة باستمرار، بحثاً علمياً، وأكاديمياً يستند الى المصادر القديمة التي روت تلك الواقعة، وتفاصيلها، عبر كتاب مقتل الامام الحسين –عليه السلام– لأبي مخنف الازدي الكوفي (ت ١٥٧هـ)، ويعد أول مخطوطة وصلتنا، وقد وثقت واقعة الطف بشيءٍ من التفصيل، وإن سبقه اثنان؛ هما الاصبغ بن نباتة المجاشعي (ت ١٠٣هـ) وجابر الجعفي (ت ١٢٨ هـ)[٣].ولم تصل الينا، الا نتفاً يسيرة متفرقة في بعض الكتب من روايتيهما.

لو استقصينا عمّن كتب في موضوع (مقتل الامام الحسين –عليه السلام–) كما يورده صاحب الذريعة؛ (الشيخ أغا بزرك الطهراني) لوجدنا عددهم بلغ أكثر من ستين [٤]، على الرغم من فقدان أغلبها، وقد أشير

٣– مقتل الأصبغ بن نباتة التميمي الكوفي أقدم المقاتل الحسينية– الشيخ عامر الجابري – مقال في صفحة وارث الانبياء للدراسات للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية– التابعة للعتبة الحسينية المقدسة.

٤– الذريعة الى تصانيف الشيعة– العلامة الشيخ اقا بزرك الطهراني. ج٢٢ ص ٢٢.

اليها من قبل الباحثين القدامى بأن قسماً منها كان موجوداً الى منتصف القرن الخامس الهجري ولكنه فقد بسبب الفتن ودخول السلاجقة بغداد.[٥] وسوف يقتصر هذا البحث على أشهرها وهو؛ مقتل أبي مِخنف لوط بن يحيى الازدي الغامدي الكوفي، لان العلماء أكدوا وجوده في فهارسهم ومعاجمهم، ومع هذا الاجماع فقد ضعّفه بعض علماء الجرح والتعديل من أمثال يحيى بن معين الذي قال عن أبي مخنف بأنه ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث[٦].

يتألف هذا البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، إذ تناول التمهيد مفهوم التمثلات، ومفهوم القيم لغة واصطلاحاً. وخصص المبحث الاول منه؛ أنواع الخبر. الذي بدوره قسّمته على ثلاثة أقسام؛ الخبر الابتدائي، والخبر الطلبي، والخبر الانكاري، وقمت بتقسيم الخبر الطلبي على أربعة أقسام هي؛ التوكيد بـ إنّ، والتوكيد بالقسم، والتوكيد باسلوب النداء وأخيرا التوكيد بأسلوب الدعاء، أما الخبر الانكاري الذي تناولت فيه أسلوب الاستفهام الانكاري الذي تناوله الامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه في أغلب خطبهم. أما المبحث الثاني منه فتناول؛ البعد الدلالي في فقرتين هما؛ علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية، وعلم البديع الذي يشمل الطباق، والجناس. ومن ثم تأتي الخاتمة التي تضمنت أبرز النتائج التي توصل اليها الباحث،

التمهيد

١. مفهوم التمثلات:

التمثلات: هي عبارة كلمة اشتقت من مادة (مثل)، أي أن المفهوم اللغوي لمفردة (التمثّل)، ف تمثل الشيء: تصور مثاله. ويقال: تمثل الشيء له، اذا ما ظهر أمامه، أو تصور كنهه، وتصور له، تشخص له، وتمثل الشيء: تصور مثاله، وتمثل بالشيء ضربه مثلاً، ومثل له الشيء: صوره حتى كأنه ينظر اليه.[٧]

و(م ث ل) لي مثلة ومثيله ومماثله. ومثل به مثلة؛ وهو أن يقطع أعضاء جسده، أو يسوّد وجهه، وحلت به المثلة: العقوبة والمثلات. ومثل قائماً انتصب مثولاً، ورأيته ماثلاً بين يديه، وتماثل من مرضه، ومثل به شبهه، وتمثل به تشبه ومثل الشيء بالشيء سوى به وقدر تقديره [٨].

أمّا المعنى الاصطلاحي للتمثلات؛ فهو: (عملية إبداعية تقوم على جمع شتات الشيء وتكوينه أو استحضاره في المخيلة ليستوي تاماً، ثم ينقل إلى الواقع ليكون حقيقة يمكن إدراكها من خلال الفن فمثّل الشيء بالشيء سواه وشبهه به وجعله على مثاله فالتمثيل هو التصوير والتشبيه والفرق بينه وبين التشبيه هو أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، وتمثيل الشيء تصور مثاله ومنه التمثل)[٩].

٥- ينظر أصول المقتل الحسيني- الشيخ عامر الجابري- مؤسسة وارث الانبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية- ط١- ٢٠١٥- ص ٨٤ وما بعدها.

٦- ينظر سير أعلام النبلاء- القاضي الذهبي- ٧: ٣٠٢

٧- ينظر لسان العرب لابن منظور- اعداد يوسف خياط - دار صادر- بيروت- ١١: ٦١٢

٨- أساس البلاغة- جار الله الزمخشري- تحقيق: محمد باسل عيون السود- ٢: ١٩٣

٩- المعجم الفلسفي - جميل صليبا - مركز توزيع ذوي القربى - قم - ايران - ١٩٨٥ - ٤: ٣٤١

٢. مفهوم القيم:

أما مفهوم القيم؛ القيمة: واحدة القيم، وأصله الواو، لأنه يقوم مقام الشيء، يقال قومت السلعة، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم والاستقامة؛ التقويم. لقول أهل مكة استقمتُ المتاع أي قوّمته، وفي الحديث قالوا يا رسول الله لو قوّمت لنا، فقال الله هو المقوِّم، أي لو سعّرت لنا، وهو من قيمة الشيء أي حددت لنا قيمتها. ويقال قام قائم الظهيرة، والقائم قائم الظهيرة، ويقال قام ميزان النهار فهو قائم أي اعتدل. والقائم بالدين: المستمسك به الثابت عليه.وفي الحديث إن حكيم بن حزام قال: (بايعت رسول الله – ﷺ – أن لا أخر الا قائما).[١٠] أي بايعت أن لا أموت الا ثابتاً على الاسلام والتمسك به. وكل من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائم عليه. والقائم على الشيء الثابت عليه، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي مواظبة على الدين ثابتة. وقائم السيف مقبضه [١١]. يقال استقام له الامر، وقومت الشيء فهو قويم أي مستقيم، وقام المتاع بكذا أي تعادلت قيمته به، والقيمة: الثمن الذي يقاوم به المتاع أي يقوم مقامه [١٢]. إذن يمكن القول بأن القيمة تأتي بمعنى؛ مستقيمة لا عوج فيها، أي تبين الحق من الباطل، كقولهم؛ قام الدليل على كذا اذا ظهر واستقام. وتاتي بمعنى القائمة، أي هي قائمة مستقلة بالحجة والدلالة، كقولهم: قام فلان بالامر يقوم به اذا أجراه على وجهه. يمكننا الاستنتاج بأن معنى القيمة جاءت بعدة معانٍ هي؛ الاستقامة، والثمن، والثبات، والدوام، وهو الاقرب.

وأما معنى القيمة اصطلاحاً: فهي معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية وعامة تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويكتسبها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقيم منها موازين يبرر منها أفعاله، ويتخذها هادياً ومرشداً، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد، فتحدد لكل منهم خلانه وأصدقاءه وأعداءه [١٣]. ويمكننا القول بأنها الثوابت الأخلاقية التي لها علاقة بحياتنا الاجتماعية، وتقوم بتحديد سلوكيات الأفراد، فتعد معياراً أخلاقياً يمكن القياس على وفقه، تحرك الأفراد داخل منظومة الحياة، فهناك قيم ثابتة تشترك فيها الانسانية جمعاء؛ كالصدق، والمحبة، والتسامح، والشجاعة، والكرم، والشهامة، والأمانة.

وعلى هذا الأساس جاءت الشريعة الاسلامية السمحاء بقيم مستمدة من فطرة الانسان، علاوة على القيم الثابتة التي كانت موجودة وسائدة قبل الاسلام، ولكنه استثمرها بشكل ايجابي لصالح الجماعة، وفق مسألة الثواب والعقاب، فمثلاً القيم الفطرية؛ كالرحمة، والتعاون، والعدل، والحب، هي قيم انسانية فهي قيم عالمية ترتبط بالذات الانسانية الثابتة لا في المتغيرات من الوسائل، وتشترك الانسانية في تقديسها وان تباينت أفهام الناس حولها؛ كالحرية، والمساواة، فجاء الاسلام ليرسخ هذه القيم وينشرها، ويثيب عليها.

١٠– ينظر لسان العرب المحيط– لابن منظور – ٣: ١٩٣. وينظر الحديث الشريف في كتاب (كشف الخفاء)– العجلوني– ٢: ٣٥٤.

١١– الاغراب – النسائي ت٣٠٣هـ – تحقيق:ابو عبد الرحمن محمد الثاني– ص٩٠، (ال عمران–١١٣)

١٢– ينظر لسان العرب لابن منظور ٣: ١٩٣.

١٣– ينظر القيم الروحية في شعر عمر بهاء الدين الأميري– وائل مصباح محمود العريني– رسالة ماجستير– الجامعة الإسلامية– غزة –كلية الآداب– قسم اللغة العربية– ٢٠٠٧– ص٣٠.

المبحث الأول: أنواع الخبر:

بداية لابد من التذكير بعلم المعاني الذي يتناول أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال [١٤]. ثم يبين الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) أن علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب؛ أحوال الاسناد الخبري، وأحوال المسند اليه، وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل، والقصر، والانشاء، والفصل والوصل، وأخيرا الايجاز والاطناب والمساواة [١٥].

ويروى أن الفيلسوف الكندي(ت ٢٥٦هـ) قال لأبي العباس المبرد (ت ٢٨٦هـ) صاحب كتاب الكامل في الادب؛ ((اني لأجد في كلام العرب حشواً، يقولون: (عبد الله قائم) و(إنّ عبدالله قائم) و (إنّ عبدالله لَقائمٌ) والمعنى واحد، فأجابه المبرد؛ بل المعاني مختلفة؛ فـ (عبدالله قائم) إخبار عن قيامه، و(إن عبدالله قائم) جواب عن سؤال سائل، و(إن عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكر.ويسمى النوع الاول من الخبر ابتدائياً، والثاني طلبياً، والثالث إنكارياً، وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجاً على مقتضى الظاهر))[١٦].

وسيتبع الباحث التقسيمات التي وردت في كلام المبرد – آنف الذكر– وسيكون على ثلاث فقرات هي:

١-الخبر الابتدائي:

وهو ان يكون المخاطب خالي الذهن من الخبر. غير متردد فيه، ولا منكر له؛ وفي هذه الحال لا يؤكد له الكلام؛ لعدم الحاجة إلى التوكيد. وبالنسبة لهذا اللون من الخبر لم يأتِ في خطب الامام الحسين –عليه السلام– ، ولا في خطب أصحابه ولا حتى في كلام أعدائه في يوم عاشوراء، وذلك لأنهم جميعاً كان كل واحد يريد أن يثبّت موقفه، ويحاجِّ الطرف الآخر، فيحتاج بالتالي الى النوعين الآخرين من الخبر وهما؛ الخبر الطلبي، والانكاري.

وجدت مقطعاً في تعليق مسلم بن عوسجة عندما استأذن الامام الحسين –عليه السلام– برمي شمر بن ذي الجوشن بسهم، واصفاً الشمر: (فالفاسق من أعظم الجبارين!) [١٧]، فهذه العبارة من الممكن أن نعدها (خبراً ابتدائياً). والموقف الآخر الذي يمكن ملاحظة الخبر الابتدائي فيه: هو موقف الحر بين يزيد الرياحي وهو يوجه خطابه للطرف الآخر، ويقرّعهم على تصرفهم المشين بمنع الامام الحسين –عليه السلام– الماء هو وعياله وأصحابه قائلاً: (وحلّأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه)[١٨]. وإن كان هذا الخبر لا يخلو منه ذهن المتلقي ظاهراً، ولكن يرى الباحث أنّ الحر أراد أن يعمق الموقف في نفوس الأعداء، لإتمام الحجة عليهم، باعتباره ناصحاً أميناً إليهم.

وهناك موقف آخر في يوم عاشوراء عندما سقط الامام الحسين –عليه السلام– على الأرض من كثرة الجراح والطعن، انفلت من خيام الامام الحسين –عليه السلام– غلام بعد أن شاهد رجلاً يهوي بالسيف على الحسين–

١٤– الايضاح في علوم البلاغة– الخطيب القزويني– ص١٥.
١٥– م. ن. ص ١٦.
١٦– م.ن. ص: ٢٤.
١٧– وقعة الطف لأبي مخنف ص ٢٢٧
١٨– م. ن: ص٢٤٧

عليه السلام– فقال الغلام يابن الخبيثة! أتقتل عمي فضربه بالسيف فاتقاها الغلام بيده فأطنّها الى الجلدة، فاذا يده معلقة) [١٩]. فالعبارة؛ (فضربه بالسيف فاتقاها الغلام بيده فأطنّها الى الجلدة) فقط. فهي خبر ابتدائي، إذ اتضح لنا تعبير عن الاخبار بحال ما حصل للغلام.

٢- الخبر الطلبي:

وهو الخبر الذي يكون المخاطب متردداً في الخبر، طالباً الوصول لمعرفته، والوقوف على حقيقته فيُستحسن تأكيد الكلام الملقى اليه تقويةً للحكم، ويكون التوكيد بالأدوات؛ (إنّ، أنّ، لام الابتداء، أحرف التنبيه، القسم، نونا التوكيد، الحروف الزائدة (كتفعّل، واستفعل) والتكرار وقد، وأما الشرطية، وانما، واسمية الجملة، وضمير الفصل)[٢٠] وهذا النوع من الخبر قد ورد في خطب الامام الحسين –عليه السلام– وأصحابه في معرض حديثهم، لا في موضع حجاج الاعداء. ولغرض تسهيل دراسة هذا النوع من الاخبار قسمناه بحسب أداة التوكيد المستعملة فيه، فكانت على النحو التالي:

أ– التأكيد بـ إنّ:

لو اطلعنا على خطبة الامام الحسين –عليه السلام– ليلة عاشوراء بعد اجتماعه بأصحابه، فقال: أما بعد؛ (فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً، ألا وأني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله...) [٢١]. يبدأ الامام –عليه السلام– خطبته بالحمد والثناء على الله تعالى، ومن ثم يؤكد كلامه باستعماله (إنّي) أي أراد أن يوصل رسالة الى المتلقين بأنه على يقين من أمره، وإنه لا يقوم بأي عمل الا وهو واثق منه، فتجلى ذلك عبر تجسيده لقيم الرجولة والشهامة في هذه الخطبة. ثم يؤكد كلامه بالحرف (إنّ) التي تفيد التوكيد وقد كررها مرتين لبيان أهمية ما يريد قوله للمتلقين، وذلك عند قوله؛ (ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً، ألا وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ..). إذ يمكن ملاحظة قوة المعاني والالفاظ، وقوة الحجة والبرهان، في اسلوب الامام –عليه السلام– الخطابي، فنجده يتحدث الى إرادة سامعيه لاثارة عزائمهم، واستنهاض هممهم، ولجمال هذا الاسلوب ووضوحه، شأن كبير في تأثيره، ووصوله الى قرارة النفوس، ومما يزيد من تأثير هذا الاسلوب، منزلة الخطيب في نفوس سامعيه، وقوة عارضته، وسطوع حجته، ونبرات صوته، وحسن إلقائه، ومحكم إشاراته. ومما أبرز هذا الاسلوب عند الامام –عليه السلام–؛ التكرار، واستعمال المترادفات، وضرب الامثال، واختيار الالفاظ الجزلة ذات الرنين.

وثمة موقف آخر يستأذن مسلم بن عوسجة الامام –عليه السلام– ليطلق السهم على شمر بن ذي الجوشن الذي أساء الادب مع الامام الحسين –عليه السلام– فرفض الامام –عليه السلام– قائلا؛ (لا ترمه، فاني أكرهُ أن أبدأهم)

١٩– م. ن: ص٢٨٩
٢٠– ينظر جواهر البلاغة– احمد الهاشمي– ص ٥٩
٢١– وقعة الطف – لأبي مخنف: ص٢٢٧

[٢٢]. إذ إنَّ مسلماً كان ينطلق من مبدأ الرد على اعتداء بالكلام من قبل شمر بن ذي الجوشن، أما رفض الامام –عليه السلام– كان منطلقاً من قيم العدل، والعفو والتحنّن، إذ ليس من المروءة قتل انسان رداً على شتيمة أطلقها، وفي الوقت نفسه كره الامام –عليه السلام– أن يكون هو البادئ بالقتال، بل أراد أن يكون موقفه الدفاع عن النفس فحسب. اذ أكد الامام الحسين –عليه السلام– على قوله، وتبرير نهيه، باستعمال التوكيد بـ إن. أما من الصورة البلاغية في كلام الامام الحسين –عليه السلام– في المقطع السالف الذكر فقد تميز بالايجاز، لان الموقف استوجب ذلك. إذ استعمل لا الناهية أولاً، ثم استعمل (إنّ) التي تفيد التوكيد. وهذا يعطي دلالةً واضحة، في أنها تصب في مجالين متعاكسين، الاول؛ نهي عن القيام بفعل الرمي، والثاني: تسليط الضوء على قيمة نبيلة، ألا وهي السلام، أي أنه يكره أن يبدأهم بقتال، ونجده قد استعمل (إنّ) التي تفيد التوكيد، وقد أراد عبرها أن يؤكد ولاءه واستعداده للاستشهاد بين يدي سيده الامام الحسين –عليه السلام–.

وفي خطبة زهير بن القين نجده قد استعمل لفظة (إنَّ) التي تفيد التوكيد، لما أراد أن يبين لهم أنهم جميعاً على دين واحد، وملة واحدة، قبل أن تقع الحرب بينهما، أما لو وقعت الحرب بينهما، ففي هذه الحالة سوف يحدث شرخ كبير، مما يؤدي الى أن يصبحوا ملتين مختلفتين. ويأتي في نص الخطب استعمالات أخرى للتوكيد بإنّ، كقوله؛ (إن الله قد ابتلانا وإياكم) و(إنا ندعوكم الى نصرهم وخذلان الطاغية) و(فإنكم لا تدركون منهما) كل ذلك جاء لتأكيد النصح لهؤلاء، وإبعادهم عن خطورة ما هم مقدمين عليه من فعل مشين سوف يجعلهم يندمون عليه طيلة حياتهم.

وتمثّل هذا النوع من الخبر في قول الحر الرياحي لأعدائه، مرتجزاً[٢٣]:

إني أنا الحـرُّ ومـأوى الضـــيـفِ أضـــرب في أعراضـــهم بالســـيف
عن خير مَنْ حـلَّ مِنى والخيفِ أضـــــربهـم ولا أرى مـن حـيـفِ

إذ استعمل الحر الرياحي التوكيد بـ (إنّ)؛ لاثبات ما هو عليه من موقف، عندما يفتخر بقيم الكرم والشجاعة، والمروءة.

ب– التوكيد بـ (القَسَم):

يعد القسم من أقوى الأساليب في التوكيد، وصيغته؛ والله، ولعمري، وأيم الله.. لذلك نجد صيغة القسم تتكرر في مختلف مشاهد المقتل الحسيني، لأن الامام الحسين –عليه السلام– كان في موقف الدفاع من جانب، ومن جانب آخر؛ أراد أن يؤكد أحقيته في كل ما صدر منه وكذلك أصحابه كانوا على النهج نفسه. و من المواقف الرائعة موقف أبو ثمامة عمرو بن عبدالله الصائدي الذي قال للامام الحسين –عليه السلام–: (يا أبا عبد الله! نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتل حتى أُقتل دونك إن شاء الله، وأحبّ أن ألقى ربي وقد صليتُ هذه الصلاة التي دنا وقتها. فرفع الحسين –عليه السلام– رأسه ثم قال: ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين! نعم هذا أول وقتها. ثم قال: سلوهم أن يكفّوا عنا حتى نصلي)[٢٤]. فالقسم هنا جاء في معرض الايثار بالروح الغالية فداءً للامام الحسين –عليه السلام–. ومن المواقف

٢٢– م. ن: ص ٢٣٦.
٢٣– م.ن: ص٢٦٦.
٢٤– م.ن: ص٢٣٦.

الأخرى، تلك التي جاء فيها هذا النوع من التوكيد، قول مسلم بن عوسجة الأسدي، عندما خيّر الامام الحسين –عليه السلام– أصحابه بالنجاة بأنفسهم، وأنهم في حلٍّ من بيعتهم له، إذ قال مسلم بن عوسجة للامام –عليه السلام–: (أنحن نخلي عنك ولما نُعذرُ الى الله في أداء حقك! أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك!) [٢٥]. فتمثلات قيم المروءة والشجاعة والشهامة ونكران الذات تتجلى في رد هؤلاء الأصحاب، وهم يعلنون أقصى حالات الانذار والتأهب للمعركة التي نتيجتها محسومة لصالح العدو سلَفاً، بسبب عدم وجود التكافؤ العددي بين المعسكرين، ولو أمعنا النظر في المقطع السابق عند قوله؛ (والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي...) نجده استعمل القسم وهو من أقسام الخبر الطلبي والانكاري في علم المعاني، ويوحي عبره للمتلقي أموراً عدة منها؛ التوكيد، والثبات على الموقف، والشجاعة. وهكذا بقية أصحاب الامام الحسين –عليه السلام– أمثال سعيد بن عبد الله الحنفي وهو يقف أمام الحسين –عليه السلام– ويقول: (والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله –عليه السلام– فيك، والله لو علمتُ أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وانما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً) [٢٦]. فهذا الجواب يحمل أرقى صور البطولة، والشهامة، والتضحية في سبيل إحقاق الحق والموت في سبيله، فهو قد صوّر في حديثه أبشع صور الموت، ولكنه يرضى بها لو وقعت عليه، شريطة أن يكون في صف الامام الحسين –عليه السلام–. فشخصيته –عليه السلام– تمثل محوراً تدور حوله الأحداث، فأثرت في الشخصيات التي حولها، في قيمها وأفكارها، حتى غدت افكارهم واحدة، مِمّا يدل على قوة الأواصر والتلاحم والتمازج فيما بينهم [٢٧].

إذ بدأ كلامه مع الامام الحسين –عليه السلام– بقسم وهذا يفيد التوكيد عند قوله: (والله لا نخليك حتى يعلم الله)، ثم يتبعه بقسمٍ آخر عند قوله: (والله لو علمت أني أقتل...) كذلك. أما زهير بن القين الذي ضرب أروع الامثلة في تمثلات القيم النبيلة في كلامه وهو يخاطب الامام الحسين –عليه السلام– إذ قال: (والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك!)[٢٨]. إذ بدأ كلامه بالقسم مثل بقية أصحاب الامام الحسين –عليه السلام–، وهذا يعني إشارة الى التوكيد، إذ لم يكتف بالتوكيد بالقسم بل راح يؤكد كلامه بلام التوكيد أيضاً في قوله: (والله لوددتُ..)، وهذا التأكيد يفيد جدية القائل، وأنه ماضٍ الى تنفيذ ما أراد. والفقرة الأخرى في كلام زهير –رحمه الله– يصور الموت الذي لو يقع عليه مرات عدة، لم يتغير موقفه، في الدفاع عن الامام الحسين –عليه السلام– وأهل بيته.

٢٥– م.ن: ص٢٢٨.
٢٦– م.ن: ص٢٢٩.
٢٧– ينظر رسالة الماجستير، السرد في مقاتل الإمام الحسين –عليه السلام–، ص١٨١.
٢٨– وقعة الطف– ص٢٢٩.

وفي مقطع من خطبة للامام الحسين –عليه السلام– يستعمل القسم فيها قائلاً: (فو الله ما تعمّدتُ كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله)[٢٩]، إذ تتجلى فيها أسمى القيم الانسانية وهي؛ الصدق الذي اتصف بها الامام –عليه السلام–.

وله –عليه السلام– أيضاً في يوم عاشوراء، هذا المقطع الذي يؤكد فيه على صلته القريبة من جده المصطفى –صلى الله عليه وآله وسلم– قائلاً: (فو الله مابين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍ غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة)[٣٠].

وعندما نتفحص رد الامام الحسين –عليه السلام– على خطبة زهير: (أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ، لو نفع النصح والابلاغ)! [٣١] إذ استعمل القسم وتوكيده باللام في قوله؛ (فلعمري) و(لئن) و(لقد) للتأكيد على رضاه عنه، بأنه قد قام بما يمليه عليه ضمير في النصح، وفي اتمام الحجة عليهم، كما استعمل الامام –عليه السلام– (لو) التي هي حرف امتناع لامتناع، أي انك قد أبلغت ونصحت، ولكن لم ينفعهم هذا النصح، وهذا الابلاغ. لانهم قد شتموه ونالوا منه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له، ثم قالوا له: (والله لا نبرحُ حتى نقتل صاحبَك ومن معه، أو أن نبعث به وبأصحابه الى الامير عبيد الله سلماً!) [٣٢].

وبالمقابل نجد العكس تماماً من موقف عمر بن سعد الذي سأله الحر بن يزيد الرياحي، عن مدى جديته في قتال الامام الحسين –عليه السلام–؟ وهو من أكثر الناس يعرف حسيناً؟ فجاء رد عمر:(إي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي!)[٣٣].

لو تفحصنا جواب عمر لوجدناه قد استعمل أسلوب القسم الذي يؤكد عبره أنه فعلاً عازم على قتال الحسين –عليه السلام–، كما نرى اختفاء القيم النبيلة من كلامه بل وجدنا العكس تماماً كالشماتة والحقد واللؤم، وإصراره على انتهاك حرمة حفيد النبي–صلى الله عليه وآله وسلم–.

ومن القيم النبيلة المشتركة بين جميع الناس على مختلف أديانهم وأعراقهم وانتماءاتهم، المعاملة الحسنة لأسرى الحرب، وهذا الأمر لم يعمل به هؤلاء القوم مع الحسين –عليه السلام– وأصحابه، ففي يوم عاشوراء وقع نافع بن هلال الجملي في الأسر، فجاؤوا به يسوقونه الى عمر بن سعد والدماء تسيل على لحيته! فقال له عمر: (ويحك يا نافع! ما حملك على ما صنعت بنفسك؟ قال: إن ربي يعلم ما أردتُ، والله لقد قتلتُ منكم اثني عشر! سوى من جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد، ولو بقيتْ لي عضد وساعد ما أسرتموني! فقال له شمر: أقتله أصلحك الله! قال: إن شئت فاقتله فانتضى شمر سيفه. فقال له نافع: أما والله أن لو كنتَ من المسلمين لعظُمَ عليك أن تلقى الله بدمائنا! فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه! فقتله رحمة الله عليه) [٣٤]، لو أمعنا النظر في النص نجد الدلالات البلاغية في قول ابن نافع وهو في أصعب

٢٩– م.ن: ص٢٣٨

٣٠– م. ن: ص٢٣٩

٣١– م. ن: ص٢٤٥

٣٢– م. ن: ص٢٤٥.

٣٣– م. ن: ص٢٤٥.

٣٤– م. ن: ص٢٦٧. انتضى: اي سلّه من غمده (ينظر لسان العرب لابن منظور ٣: ٦٥٩).

المواقف، إذ استعمل القسم لإبراز التأكيد على الموقف الحق الذي يتمتع به، وهو نصرة ابن بنت رسول الله، وفي الوقت نفسه لا يتوانى من الاعتراف، والفخر بقتله اثني عشر رجلا من جيش ابن سعد سوى من جرح، ثم انه يقول بشجاعة واصرار بأنه لولا إصابته بالعضد والساعد (ما استطعتم من أسري)، ثم يضيف الى قوله السابق بعد أن رفع شمر سيفه لقتله؛ قائلاً: فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه. فاستعمل أسلوب الدعاء، لإغاظة العدو وهذا بحد ذاته هو الثبات على المبدأ، وصحة العقيدة، والبعد عن النفاق والدجل، الذي صار سمة أهل الكوفة في تلك الظروف.

وفي موقف آخر عندما سقط القاسم بن الحسن –عليهما السلام– في أرض المعركة جاء اليه عمه الحسين –عليه السلام–، فمن جملة ما قاله: (عزَّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك، صوتٌ والله كثُرَ واترُهُ وقَلَّ ناصرُهُ!) [٣٥]. استعمل القسم لغرض التأكيد على قوله؛ صوتٌ والله كثر واتره وقلّ ناصره أي؛ كثرُ فِيهِ قاتِل الحَميم ولم يُؤخَذ بدمِهِ.

ج– اسلوب النداء والامر:

وفي خطبة أخرى للامام الحسين –عليه السلام– في يوم عاشوراء، بدأ بالحديث مع أعدائه بشكل سلمي، وطلب إليهم أن يستمعوا مقاله، ومن ثم يحكموا على أنفسهم، ويراجعوا عقولهم، فهاهو يقول: [أيها الناس! اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يحقّ لكم عليّ، وحتى أعتذر اليكم من مقدمي عليكم، فان قبلتم عذري وصدّقتم قولي، وأعطيتموني النَّصَفَ كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصَفَ من أنفسكم ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمرُكم عليكم غمّة ثم اقضوا إليّ ولا تُنظرون﴾ [يونس –٧١] [٣٦].

من القيم الانسانية التي تمثلت في هذه الخطبة، قيمة النصح والانصاف، إذ استعمل أسلوب النداء بداية عندما وجه الخطاب لأهل الكوفة، ثم طلب منهم الاستماع اليه مستعملاً فعل الأمر (إسمعوا)، وبعد ذلك استعمل أسلوب النهي، مستعملاً (لا الناهية) فنهاهم عن العجلة، كيما يعظهم، ويوصل اليهم رسالته، إذ بحسب القيم الاخلاقية التي يحملها، يعد من حق الجاهل على العالم، النصح والارشاد الى الصواب من العمل، فاراد أن يبين لهم سبب قدومه اليهم، ثم طلب منهم أن يكونوا منصفين في أي قرار يتخذونه، وإن لم ينصفوه من أنفسهم عند ذلك فليعملوا ما شاءوا مستشهداً بالآية الكريمة دعماً لموقفه، فكانما أراد بذلك إتمام الحجة عليهم.

عندما وجّه الخطاب لبعض قادتهم ممن كاتبوه فنادى –عليه السلام–: (يا شبث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا اليّ؟!)[٣٧]. فها هو الامام –عليه السلام– قد استعمل اسلوب النداء، إذ نادى شبثاً وحجاراً ويزيدَ بن الحارث، وحاجّهم قائلاً: ألم تكتبوا اليّ، فهذا الاستفهام الانكاري، قد خرج الى معنى التوكيد.

٣٥– وقعة الطف ص٢٧٩.
٣٦– م. ن.: ص٢٣٧.
٣٧– م. ن.: ص٢٣٩.

يمكن القول بأن أسلوب النداء له وقعٌ كبير في نفوس المتلقين، لذلك وجدنا الامام –عليه السلام– استعمله في خطبه مع أعدائه، لذلك نجد الامام الحسين –عليه السلام– قد ركز عليه حتى مع أصحابه من أجل التأكيد على إظهار الحقيقة.

ومن القيم النبيلة التي وجدتها في كلام أصحاب الامام الحسين –عليه السلام–، والتي تتمثل في أدب الاستئذان، لدى مسلم بن عوسجة، بعد أن أساء شمر بن ذي الجوشن في كلامه مع الامام –عليه السلام– وبعد أن رد الامام –عليه السلام– عليه استأذن مسلم بن عوسجة الامام –عليه السلام– ليرمه بسهم، فقال: (يا بن رسول الله جعلتُ فداك ألا أرميه بسهم، فانه قد أمكنني، وليس يسقط سهم مني فالفاسق من أعظم الجبارين!) (٣٨)، فهذا الاستئذان من مسلم بن عوسجة يعد من القيم العظيمة، التي كان يتحلى بها أصحاب الامام الحسين –عليه السلام–، وأن فيها أدب واحترام القائد فاستعمل في عبارته اسلوب النداء المار الذكر.

وقد تمثّل أسلوب النداء أيضاً في خطبة الحر التي يقول فيها: (أيها القوم! ألا تقبلون من حسينٍ خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟ قالوا: هذا الأمير عمر بن سعدٍ فكلمه. فكلمه بمثل ما كلّمه به قبلُ، وبمثل ما كلّم به أصحابه. قال عمر بن سعد: قد حرصتُ، لو وجدتُ الى ذلك سبيلاً فعلتُ)(٣٩). نجد الحر قد ابتدأ كلامه باستعمال اسلوب النداء (أيها). والهدف منه التنبيه ومن ثم استعمل (ألا) الاستفتاحية التي تلفت انتباه الطرف الآخر. ثم يكمل خطابه لأهل الكوفة قائلاً: (يا أهل الكوفة! لأمكم الهبَلُ والعُبْر، إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسْلمتموه! وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمِهِ، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمنَ ويأمن أهلُ بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضرّاً، وحلّأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم أولاء قد صرعهم العطش، بئسما خلَفتم محمداً في ذريته! لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه) (٤٠). عند تفحص النص المتقدم للحر، بحثاً عن القيم النبيلة التي تضمنها، وجدناه ناصحاً، جريئاً يخاطب المعسكر الاخر بشدة، من باب الحرص والشفقة عليهم، لانهم لا يعلمون ما سيحلّ بهم جرّاء ماسوف يقترفون من ذنب عظيم تجاه الحسين –عليه السلام– وهاهو يوبخهم بقوله: (يا أهل الكوفة! لأمكم الهبَلُ والعُبْر)(٤١)، فجاء بمعنى الدعاء عليهم. وفي مكان آخر يدعو عليهم بقوله؛ (لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه) إذ أن استعمال هذا النوع من الدعاء يشكل في حد ذاته صدمة للمتلقي، وفي الوقت نفسه دعوة لمراجعة تفكيره وما هم عازمين عليه.

أما زهير بن القين، الذي يحمل قيم الشجاعة، والنبل، والمروءة، التي هي انعكاس لما جاء به الامام الحسين –عليه السلام–، فأخذ بنصحهم والنصيحة هي قيمة عليا، فقالً لهم: (يا أهل الكوفة! نذارِ لكم من

٣٨– م. ن.: ص٢٣٦.

٣٩– م. ن. ص٢٤٨.

٤٠– م. ن ص ٢٤٨.

٤١– لأمكم الهبل؛ تعني؛ لأمكم الثكول، والهبل: الثكل. والاهبال: الاثكال. بمعنى الهلاك والموت.(ينظر لسان العرب لابن منظور – طبعة دار لسان العرب – يوسف خياط – ٣: ٧٦٤).

عذاب الله نَذار! إنّ حقاً على المسلم نصيحةُ أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوةٌ على دين واحد وملةٍ واحدة ما لم يقع بيننا السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أُمة. إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية محمد –ﷺ– لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم الى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما الا بسوء عمر سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطِّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حُجر بن عَديّ وأصحابه، وهانئ ابن عروة وأشباهه) [٤٢]. من الملاحظ أن زهيراً بدأ خطبته بالنداء، يريد التنبيه لأمر هام (لما سوف يقول)، ثم كرر لفظة (نذار) التي أفادت التنبيه أي لفت انتباه المتلقين، فهذا التكرار يبعث برسالة الى المتلقي بان ينتبه الى شيء خطير يريد الخطيب الافصاح عنه، فيجعله منتظراً لما سوف يأتي بعده من كلام..

ومن الذين فجاؤوا لحرب الامام الحسين –عليه السلام–؛ هو عمرو بن الحجاج الذي وقف يوم العاشر من المحرم وهو يحرض على قتال الحسين –عليه السلام– مستعملاً أسلوب النداء فقال: (يا أهل الكوفة! إلزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف الامام)[٤٣]. تتجلى أمامنا صورة المشوّه للحقيقة، وهو ممن خدع أصحابه، إذ لا يكتفي بنفسه مخدوعاً بل راح يشوه الحقيقة أمام أصحابه ويصف الامام الحسين –عليه السلام–، وأصحابه بأنهم مارقين من الدين ووجوب قتالهم، وما استعماله لأسلوب النداء إلا ليؤكد مقاله أمام أصحابه المخدوعين ليثبت أمامهم بأن لهم الحجة بقتال الامام الحسين –عليه السلام–، باعتباره مارقاً من الدين؛ لذا انبرى اليه الامام الحسين –عليه السلام– قائلاً: (يا عمرو بن الحجاج! أعليّ تحرّض الناس؟! أنحن مرقنا وأنتم ثبتّم عليه! أما والله لتعلمنّ –لو قد قُبِضت أرواحكم ومتُّم على أعمالكم– أيّنا مرق من الدين ومن هو أولى بصلْيِ النار!)[٤٤].وهاهو الامام الحسين –عليه السلام– في خطابه –عليه السلام– قد استعمل النداء في رده على عمرو بن الحجاج، لتصحيح الشبهة التي أطلقها عمرو بن الحجاج لأصحابه، وفي الوقت نفسه استعمل الامام –عليه السلام– الاستفهام الانكاري.

ومما روي في هذا الصدد، أن الامام –عليه السلام– عندما شدّ على القوم فكانوا ينكشفون من أمامه انكشاف المعزى اذا شدّ فيها الذئب. وبينا هو –عليه السلام– يشد على الخيل ويقول: (أعلى قتلي تَحاثّون؟: أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني! وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون أما والله لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم) [٤٥]. نلاحظ أن الامام –عليه السلام– يقسم بأنهم لو قاموا بقتله –عليه السلام– سوف يكرمه الله بهوانهم ثم ينتقم منهم بأن يلقي بأسهم بينهم، ويقوموا بسفك دماء بعضهم البعض. فهذه الكلمة التي تحمل معاني الغضب على القوم، والثقة بالله تعالى من الانتقام له منهم، إذ يستعمل القسم مرتين، الاولى: بعبارة؛ (أما والله)، والثانية، عند قوله؛ (وأيم الله)، لأن القسم يبيّن قوة

٤٢– وقعة الطف: ص٢٤١.
٤٣– م. ن.: ص٢٥٧.
٤٤– م. ن.: ص٢٥٧.
٤٥– م. ن.: ص٢٨٧.

وتأكيد المعنى المراد، ويكون أوقع في نفوس خصومه. ثم نجده يستعمل لام التوكيد، و (إنّ) التي تفيد التوكيد في العبارة: (وأيم الله إني لأرجو)، لذا جاء معنى العبارة قوياً ومؤثراً في نفس المتلقي.

ومما يروى أيضاً؛ وبعد أن سقط الامام الحسين -عليه السلام- على الارض من كثرة الجراح والطعن، انفلت من خيام الحسين -عليه السلام- غلام بعد أن شاهد رجلاً يهوي بالسيف على الحسين -عليه السلام- فقال الغلام يابن الخبيثة! أتقتل عمي فضربه بالسيف فاتقاها الغلام بيده فأطنّها الى الجلدة، فاذا يده معلقة فنادى الغلام يا أمتاه! فأخذه الحسين -عليه السلام- فضمّه الى صدره وقال: (يا بن أخي إصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فان الله يُلحقك بآبائك الصالحين برسول الله وعلي بن أبي طالب وحمزة والحسن بن علي صلى الله عليهم أجمعين..)[٤٦]. هذه اللوحة تعبر عن مأساة حقيقية وقعت مع هذا الغلام، فاستعمل أسلوب النداء في قوله:(يابن الخبيثة)، يريد بذلك لفت نظر المتلقي، مما دفع هذا المعتدي بضرب الغلام وقطع يده، فصاح الغلام مستغيثاً؛ (يا أمتاه!) وهنا احتضنه الامام الحسين -عليه السلام-، ودعاه الى الصبر، وتفويض أمره لله تعالى، مخاطباً إياه؛ (يا بن أخي) مستعملاً أسلوب النداء.

د- أسلوب الدعاء:

وهو من علم المعاني، إذ يستعمله الخطيب في خطبه من أجل تأكيد مراده، وإلقاء الحجة على الطرف الآخر، سواء كان سلباً أم ايجاباً أي؛ يدعو لهم أم عليهم، وهذا الاسلوب بدا واضحاً في خطاب الامام -عليه السلام- في حجاجه مع الأعداء ومع أصحابه، وفي خطابات أصحابه، فمثلا نجد ذلك في استئذان مسلم بن عوسجة من الامام في رمي الشمر بسهم، بعد أن أساء الأدب مع الامام الحسين -عليه السلام- فقال: (جعلت فداك) و (ألا) الاستفتاحية واستفهام في (ألا أرميه بسهم)[٤٧].

ومن أساليب الدعاء ما نجده في خطبة الامام الحسين -عليه السلام- ليلة عاشوراء بعد اجتماعه بأصحابه، قائلاً (فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً)[٤٨]. فاستعماله لأسلوب الدعاء في هذا المقطع، إذ يعطي زخماً معنوياً، في نفوس أصحابه، وبمعنى آخر يؤكد لهم بأنه راضٍ عنهم، وهذا الرضا يعني رضا الله تعالى عنهم.

ومن أساليب الدعاء، ماقاله العباس بن علي بن أبي طالب -عليهما السلام- عندما خاطب أخاه الحسين -عليه السلام- (لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً)! [٤٩] بعد أن طلب اليهم الحسين -عليه السلام- ليلة عاشوراء أن يستثمروا ظلام الليل بالنجاة بأنفسهم وتركه. فعبارة الدعاء؛ (لا أرانا الله ذلك أبداً) هذه جاءت كرد فعل للعباس -عليه السلام- لاظهار المروءة والشهامة.

وفي موقع آخر نجد دعاء للامام الحسين -عليه السلام- على الاعداء حين وقف على جسد القاسم بن الحسن -عليهما السلام-، فيقول: (بعداً لقومٍ قتلوك) أي أن البعد عن مواقع الخير والرحمة تنالهم، ولا سيما في يوم القيامة، إذ أن جدك الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- سيكون خصمهم.

٤٦- م. ن.: ص٢٨٩.
٤٧- م. ن.: ص٢٣٦
٤٨- م. ن.: ص٢٢٧.
٤٩- م. ن.: ص٢٢٨.

ومن جملة أدعية الامام الحسين –عليه السلام– يوم عاشوراء، قوله: (ربِّ إن تك قد حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين) [٥٠]. ومن الجدير بالذكر أن الامام الحسين –عليه السلام– قد استعمل أسلوب الدعاء، تضرعاً لله واستسلاماً لقضائه، عندما أصبح الامام الحسين –عليه السلام– وحيداً بعدما قتل أصحابه، وأهل بيته، وحاصره الأعداء من كل مكان، فاذا بشمر بن ذي الجوشن أقبل ومعه عدد من الرجّالة نحو منزل الحسين –عليه السلام– الذي فيه ثقله وعياله فمشى نحوه، فحالوا بينه وبين رحله. فقال الحسين –عليه السلام–: (ويلكم! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب! إمنعوا رحلي وأهلي من طغامكم وجهالكم!)[٥١]. فكلمة (ويلكم!) هي؛ من باب الدعاء على الاعداء أي؛ وادي الويل من وديان نار جهنم لكم ياعبيد الدنيا! ولكنها تحمل إنذاراً شديد اللهجة، إذ يدعو المتلقي بالالتفات لما بعد هذه الكلمة. لذلك قال لهم؛ (فكونوا في أمر دنياكم أحراراً).

ومن جملة المواقف السيئة؛ موقف شمر بن ذي الجوشن بعد اشتداد القتال، وقدرته على الوصول الى مخيم الامام الحسين –عليه السلام– فطعن فسطاطه برمحه ونادى: عليّ بالنار حتى أُحرق هذا البيت على أهله! فصاح النساء وخرجن من الفسطاط! وصاح به الحسين –عليه السلام–: (يا بن ذي الجوشن: أنت تدعو بالنار لتحرِّق بيتي على أهلي؟! حرّقك الله بالنار!)[٥٢]. تتجلى فصاحة خطاب الامام –عليه السلام– وقوة تأثيره في المتلقي، عبر التركيز على القيم الانسانية التي يحملها، مقابل كلام شمر الذي انتزعت من قلبه الرحمة والانسانية، فعبارة الامام –عليه السلام–: (حرّقك الله بالنار!) هو دعاء على شمر بن ذي الجوشن، يعد رداً على تصرفه المشين مع الامام الحسين –عليه السلام–.

٣- الخبر الانكاري:

وهو أن يكون المخاطب منكراً للخبر الذي يراد إلقاؤه إليه، معتقداً خلافه، تأكيد الكلام له بمؤكد، أو بمؤكدين أو أكثر، حسب حاله من الانكار قوةً وضعفاً، وهذا الضرب من الخبر يكثر بشكل واضح في خطب الامام الحسين –عليه السلام– وأصحابه، ومن قبل الاعداء أيضاً، وهذا ما نجده في خطبته –عليه السلام– ليلة عاشوراء بعد اجتماعه بأصحابه، فقال: أما بعد؛ (فإنّي لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً، ألا وأني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله...) [٥٣]، فاستعماله لأداة النفي (لا) عدة مرات (لا يعلم)، (لا خيرا)، (لا أهل بيت)، (ولا أوصل) ما أراد منها الا إثارة للمتلقي، إذ يقوم بتصويره بصورة تناسب أحوال المخاطبين إذ يتبع هذا النفي بكلمة (أولى، أبر). وبهذا قد حقق الامام الحسين –عليه السلام– ما أراد، وايجازه لادراك المعنى. فموقف العباس –عليه السلام– عندما عرض الامام الحسين –عليه السلام– على أصحابه بأن يتخذوا الليل سبيلاً ليرحلوا عنه، واذا بالعباس –عليه السلام–،

٥٠– م. ن.: ص٢٨١.
٥١– م. ن.: ص٢٨٦
٥٢– ينظر م. ن.: ص٢٦٢
٥٣– م.ن: ص٢٢٧

يقول: (لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً)! [٥٤]، إذ نجد في هذا الجواب استفهاماً، وجواب الاستفهام، ودعاءً، وجاءت بشكل استفهام إنكاري، أي؛ -انكار لفعلهم -إن قاموا بذلك- ولا يمكن عدّه رداً على الامام الحسين -عليه السلام- أي؛ كيف لنا أن نعيش بعدك، بعد أن تخلينا عنك، وأسلمناك لعدوك، وما قيمة تلك الحياة؟!.

ونجد الامام الحسين -عليه السلام- يوجه الخطاب الآتي إلى أعدائه، مستعملاً أسلوباً حجاجياً رائعاً، أراد عبره أن يرفع الغشاوة التي وضعها أسيادهم على عيونهم، قائلاً: (أما بعد: فانسبوني فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا الى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابنَ بنت نبيكم -صلى الله عليه وآله وسلم- وابن وصيه، وان عمه وأول المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أوَ ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أوَ ليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي؟! أوَلم يبلغكم قولٌ مستفيضٌ فيكم: أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال لي ولأخي: (هذان سيدا شباب أهل الجنة؟!). فان صدّقتموني بما أقول، وهو الحق، فو الله ما تعمّدتُ كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرُّ به من اختلقه. وإن كذّبتموني فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبدالله الأنصاري وأبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك، يخبروكم: انهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!)(٥٥). فلو تتبعنا هذا المقطع من الخطبة بحثاً عن المعاني البلاغية، لوجدنا فيه أمر واستفهام ثم استفهام انكاري وكناية وقسم وتوكيد بـ إن. فاستعماله لفعل الامر دلالة على إنشائية الجملة، لانها لا تحتمل الصدق أو الكذب، كما استعان بلفظة (أنسبوني)، فهي من أفعال الطلب لكي يجعلهم يقرّون بالحقيقة، أي دحض حجتهم بالمنطق، إذ أراد من المتلقي أن يقر قوله -عليه السلام- بنفسه، ولاسيما عندما ذكّرهم بحمزة وجعفر الطيار، وانتسابه لهما. بعد أن ذكر لقب وكنية جعفر (الطيار) و(ذو الجناحين)، بعد استعماله لأسلوب الاستفهام الانكاري. ثم يلجأ للقسم لتأكيد صدق مقالته -عليه السلام-. أما تكملة الخطبة التي تتمثل فيها القيم الاخلاقية العليا وهي السلام، والحوار، والاقناع، بدلاً من الحرب والقتال، فقد جسّد الامام -عليه السلام- ذلك بوضوح عبر حديثه معهم، ولكن لم يجد من العدو سوى الآذان المقفلة، والقلوب غير الواعية إذ قال -عليه السلام-: (فان كنتم في شك من هذا القول، أفَتشكّون أثراً بعد؟ أما إني ابنُ بنت نبيكم؟ فو الله مابين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍ غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة. أخبروني، أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته؟ أو مالٍ استهلكته؟ أو بقصاصٍ من جراحة؟!)(٥٦). هذه الاستفهامات الانكارية فيها دلالات بلاغية، وهي تأكيد حقه، وحجته عليهم، ثم يتبع ذلك بالقسم الذي يحمل دلالة بلاغية وهو في علم المعاني، عندما يخاطبهم بأنه ليس بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم. ثم يسلك طريق الحجاج معهم، عندما يوجه الخطاب اليهم بكلام عربي فصيح خالٍ من الكلمات الحوشية الغريبة لرفع اللبس والشك فيه من قبلهم، لانه -عليه السلام- أراد إتمام الحجة عليهم، وما قوله: أخبروني بقتيل منكم قتلته؟ أو مال استهلكته؟..الا تأكيد سبب الاطناب في كلامه

٥٤- م. ن.: ص٢٢٨.
٥٥- م. ن.: ص٢٣٨.
٥٦- م. ن.: ص٢٣٩.

معهم. لذلك لم يستطع أحد منهم أن يواجه الامام –عليه السلام– بحجة اطلاقاً سوى السكوت أو أحداث الضوضاء لكي لا يستمع أحد لمقالته –عليه السلام– كما ورد ذلك في رواية المقتل (٥٧).

وفي مقطع آخر من هذه الخطبة يستعمل زهير لام التوكيد لتأكيد المعنى، في قوله: (ليسملان أعينكم) ثم يضعّف عين الفعل (ويقطّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم).

وعندما نتأمل الابيات التي ارتجزها وهب النصراني أمام جيش ابن زياد قائلاً (٥٨):

إن تنكروني فأنا ابنُ كلبٍ	حسبي بيْتي في عُليمٍ حسبي
إني امرؤٌ ذو مِرّةٍ وعصْبٍ	ولستُ بالخوّار عند النكبِ
إني زعيم لك أم وَهْبٍ	بالطعن فيهم مقدِماً والضربِ

ضربَ غلامٍ مؤمنٍ بالربِّ

نجده كرر لفظة (إني) وهذا أمرٌ بديهي في مثل هذه المواقف؛ لأنه يريد أن يلفت نظر المتلقي اليه، فيحدثه عن نفسه، وعن شجاعته، وعن نسبه، لذا نجده يكرر لفظة (حسبي) مرتين لاضفاء صفة انتمائه الى قبيلة بني كلب وهي من قبائل العرب، ويفتخر بنسبه أمامهم وأنه من (عُلَيْم)،كما انه قد كرر كلمة (ضرب) لزيادة شدة المعنى، وإدخال الرعب في قلوب الاعداء.

أما عمرو بن قرظة الانصاري فخرج على القوم وأخذ يقاتل دون الامام الحسين –عليه السلام– مرتجزاً وهو يقول (٥٩):

قد علمتْ كتيبة الأنصار	أني سأحمي حوزة الذمار(٦٠)
ضرْبَ غلامٍ غير نِكسٍ شاري	دونَ حسينٍ مهجتي وداري

أراد عمرو بن قرظة أنه يعد نفسه مدافعاً عن أعز مايملك، وهو الدين، وهذه قيمة أخلاقية عليا، عبر حماية الامام والذود عنه، ويصف ضربه للأعداء ضرب غلام ليس بالنِّكْس: وهو الرَّذلُ المقصّرُ عن غاية النَّجْدَة والكرَم بل شاري وهو الذي يبيع نفسه في طاعة الله، المتمثلة في الدفاع عن الحسين –عليه السلام– الذي عدّه مهجته.

وفي موقف الامام الحسين –عليه السلام– مع عمرو بن الحجاج الذي اتهم الامام –عليه السلام– بالمروق من الدين، يرد عليه مستعملاً الاستفهام الانكاري في قوله: (أنحن مرقنا وأنتم ثبتّم عليه!) أراد بهذه الصورة البلاغية تأكيد حقيقة أعدائه بأنهم بعيدون كل البعد عن قيم الرجولة والمروءة، وأنهم مخادعون ومنافقون، ثم يؤكد –عليه السلام– كلامه بالقسم، وأراد به تصوير حالهم عند الموت سيعرفون من المارق من الدين المستحق لصلْيِ النار؟!

وعند الوقوف على قول شمر بن ذي الجوشن بعد اشتداد القتال، استطاع الوصول الى مخيم الامام الحسين –عليه السلام– فطعن فسطاطه برمحه ونادى: عليّ بالنار حتى أُحرق هذا البيت على أهله! فصاح النساء وخرجن من الفسطاط! وصاح به الحسين –عليه السلام–: (يا بن ذي الجوشن: أنت تدعو بالنار لتحرِّق بيتي

٥٧– ينظر مقتل بن أبي مخنف– ص ٢٣٨.

٥٨– م. ن.: ص٢٥٠.

٥٩– م. ن.: ص٢٥٥.

٦٠– الذِّمارُ: ذمار الرجل، وهو كل مايلزمك حفظه وحياطته والدفع عنه وان ضيعه لزمه اللوم. والذمار هو الحرم والاهل. (ينظر لسان العرب– طبعة دار لسان العرب ١: ١٠٧٦).

على أهلي؟! حرّقك الله بالنار!)[٦١]. تتجلى فصاحة خطاب الامام -عليه السلام- وقوة تأثيره على المتلقي، عبر التركيز على القيم الانسانية التي يحملها، مقابل كلام شمر الذي انتزعت من قلبه الرحمة والانسانية، مما دفع بشبث بن ربعي، شريكه في الاجرام أن انتقد تصرفه قائلاً: (ما رأيت مقالاً أسوأ من قولك، ولا موقفاً أقبح من موقفك: أمرعباً للنساء صرت؟!)[٦٢]. إذ نجد الاستفهام الانكاري واضحاً في قول شبث لشمر بن ذي الجوشن، ومانتج عنه، إثارة الخوف والرعب في نفوس الاطفال والنساء، وهو يكشف عن القيم السلبية التي يحملها شمر.

ومن جانب آخر، نرى موقف حبيب بن مظاهر عندما خرج لقتال أهل الكوفة، إذ كان يرتجز و يقول [٦٣]:

أنا حبيب وأبي مُظاهر	**فارس هيجاء وحرب تُسعر**
أنتم أعدُّ عدة وأكثر	**ونحن أوفى منكم وأصبر**
ونحن أعلى حجة أظهر	**حقاً وأتقى منكم، وأعذر**

فهذه الابيات غالباً ما يقولها المقاتلون الأشداء من أجل رفع حماسة أصحابهم، وإلقاء الرعب في صفوف الاعداء، ويهابوهم، وغالباً ما يصوروا لأعدائهم نهجهم، ودينهم، وعقيدتهم، كي يعطوهم رسالة ايجابية في الثبات والاصرار على المبدأ. لكني أرى أن حبيباً قد انتهج نهجاً آخر يواجه الاعداء، إذ يفاخرهم بوفائهم، تجاه الامام الحسين -عليه السلام-، وينكر عليهم نكثهم العهود، إذ وصفهم بالكثرة، عدة وعدداً ولكن من دون قيم عليا، من شجاعة، أو عفة أو رجولة.

المبحث الثاني: البعد الدلالي:

في هذا المبحث، سوف أتناول دراسة خطب المقتل الحسيني، وفق علم الدلالة، الذي يشمل علمي البيان، والبديع؛

(١) علم البيان: وهو كما عرفه الخطيب القزويني في الايضاح: (هو علم يُعرف به ايراد المعنى الواحد بطرقٍ مختلفة في وضوح الدلالة عليه. ودلالة اللفظ: اما على ما وضع له، أو على غيره) [٦٤].

وسأحاول دراسة الدلالة في كتاب المقتل الحسيني لأبي مخنف بحسب دراسة بعض الأساليب التي عمدت اليها شخصيات المقتل، في خطبهم، وبحسب الترتيب التالي:

١-الاستعارة؛ كما يعرفها الجرجاني في أسرار البلاغة: (هي أن يكون لفظ الاصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الاصل، وينقله اليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية) [٦٥].

ففي خطبة الامام الحسين -عليه السلام- ليلة عاشوراء أمام أصحابه، يطلب إليهم أن يستثمروا ظلام الليل، ويرحلوا عنه، وأنه قد جعلهم في حلٍّ من بيعته، فعرض عليهم النجاة بأنفسهم والانطلاق الى حيث مأمنهم

٦١- مقتل أبي مخنف: ص ٢٦٢
٦٢- م. ن.: ص ٢٦٢
٦٣- م. ن.: ص ٢٦٤
٦٤- الايضاح للخطيب القزويني ص ٢١٥
٦٥- أسرار البلاغة للجرجاني ص ٢٢

من الارض، نستعرض عبارته هذه بشيء من التأمل نكتشف أنه استعمل أسلوباً بلاغياً رائعاً وذلك عند قوله؛ (ألا وأني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً)، فاستعار عن النجاة في استغلال الليل بالجمل الذي يعد قارب النجاة بالنسبة للشخص الذي يقع في مأزق الحرب، ويشكو قلة العدد والعدة، فيهرب لينجو بنفسه. فهذه قمة التضحية والفداء ونكران الذات، وأراد أن يحفظ ماء وجوههم، بأن باستطاعتهم التسلل من معسكره ليلاً دون أن يراهم هو. وهذا الامر يدل على تمثل قيمة المروءة في قوله –عليه السلام–.ثم يبرر ذلك لهم بقوله؛ (فان القوم انما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري)[٦٦]. إذ نستشف من العبارة الأخيرة قيم الامانة والصدق، إذ لم يغشهم، وأوضح لهم الأمر جلياً فأخبرهم بحقيقة الأمر من دون تلاعب بالالفاظ، أو يضخم الامر لكي يشعرهم بأنهم قد وقعوا في الفخ وأنهم مجبرون على القتال، بل أراد أن يعطيهم فرصة الانسحاب من المعركة بكل سهولة، دون أن يشعر بهم أحد.

وفي خطبة زهير بن القين لأهل الكوفة؛ (ونحن حتى الآن إخوةٌ على دين واحد وملةٍ واحدةٍ ما لم يقع بيننا السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة)[٦٧]. فاستعمل الاستعارة في هذا المقطع (ما لم يقع بيننا السيف)؛ ويعني به وقوع الحرب والتي من أدواتها السيف.

٢– الكناية: هي: (لفظ أريد به لازمُ معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ.كقولك: (فلان طويل النجاد) أي طويل القامة، والفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمة؛ فإن المجاز ينافي ذلك) [٦٨].

وعندما نتأمل رد مسلم بن عوسجة، وهو يعكس قيم المروءة والشهامة، إذ يقول في جملة كلامه، بعد القسم عبارة؛ (حتى أكسر في صدورهم رمحي) فهذه كناية عن البسالة والحماس في القتال بشدة. أما قوله؛ (وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي) [٦٩] فهذه العبارة تحمل في طياتها كناية أي؛ مادمت على قيد الحياة، فإني من المقاتلين دونك.

ولو تفحصنا قول سعيد بن عبدالله الحنفي، للامام الحسين –عليه السلام–: (والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– فيك، والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أُذر، يفعل بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً) [٧٠]. إذ صوّر لنا صور الموت المختلفة في سبيل تحقيق مرضاة الله تعالى في نصرته للامام الحسين –عليه السلام– فاستعمل صورة بلاغية رائعة وهي تصوير طرق الموت بصور عدة تكاد لا تخلو من البشاعة، ثم يضيف عليها عبارة؛ (أن يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك). اي أنه ماضٍ مع الامام الحسين –عليه السلام– الى حيث يريد من غير تردد، وباطمئنان، وبهذا يبين للمتلقي صورة الانسان القوي الثابت على عقيدته.

٦٦– وقعة الطف ص ٢٢٧
٦٧– م. ن.: ص ٢٤١
٦٨– الايضاح للقزويني ص٣٣٠
٦٩– وقعة الطف ص ٢٢٨
٧٠– م. ن. ص٢٢٩

كما نجد الامام –عليه السلام– قد استعمل الكناية عند رده على من كاتبه من قادة أهل الكوفة، كشبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، وقيس بن الاشعث، وغيرهم إذ خاطبهم بقوله؛ (ألم تكتبوا اليّ: أن قد أينعت الثمار واخضرّ الجنابُ، وطمّت الجمام وانما تقدم على جندٍ لك مجنّد، فأقبلْ؟! قالوا له: لم نفعل!)[٧١]. نجد الامام –عليه السلام– يرد على ما كتبوه في رسائلهم التي بعثوها للامام –عليه السلام–: (قد أينعت الثمار) أي حان قطافها، فهذه كناية عن أنه قد حان وقت الثورة على يزيد ورجوع الأمر الى أهله. كما استعملوا في كتبهم التي بعثوها للامام الحسين –عليه السلام– عبارة: (واخضرَّ الجناب) وهذه أيضاً كناية عن إن الأمور معدة ومتهيئة لاستقبالك. وكذلك نجد في كتبهم العبارة: (وطمّت الجمام) وتعني؛ جاء السيل فَطَمَّ الركيّةَ، أي دفنها وسوّاها. وكلُّ شيءٍ كثر حتَّى علا وغلب فقد طَمَّ يَطَمُّ. يقال فوق كلِّ طَامَّةٍ طامَّةٌ، ومنه سمّيت القيامة طَامَّة. وهذه كناية عن العجلة، أي عجل بالمسير الى العراق فقد جاء السيل فطمّ الركيّة – أي البئر ذات الماء– ثم يستعملون عبارة (وانما تقدم على جندٍ لك مجنّد، فأقبلْ) في الكتب التي أرسلوها للامام –عليه السلام–، وهذه أيضاً كناية عن الاستعداد للقتال دون الحسين –عليه السلام–، أي؛ كل شيء هنا جاهز لاستقبالك، فالجند مجند أي أن هذا الكم الهائل من الجند ينتظر وصولك. بعد محاججتهم بما بعثوه للامام –عليه السلام– قالوا له: لم نفعل. فعند موازنة هذا الرد مع القيم النبيلة التي تحلى بها الامام الحسين –عليه السلام– وأصحابه، نجدها بعيدة كل البعد عن الفضيلة و الاخلاق السامية، بلحاظ أنهم كذبوا في ادعائهم، وكذّبوا سيدهم بعد أن واجههم بما كتبوه، ومن ثم خذلوه وأسلموه. فجاء رد الامام الحسين –عليه السلام–: [سبحان الله! بلى والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس! إذا كرهتموني فدعوني أنصرفْ عنكم الى مأمني من الارض! فقال له قيس بن الاشعث: أوَ لا تنزلُ على حكم بني عمك فانهم لن يُروك الا ما تحب، ولن يصل اليك منهم مكروه!. فقال له الحسين –عليه السلام– : أنت أخو أخيك – محمد بن الاشعث – أتريدُ أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أُقِرُّ إقرار العبيد! عباد الله (اني عذت بربي وربكم أن ترجمون)– الدخان ٢٠–][٧٢]. اقسم الامام –عليه السلام– بأنهم قد فعلوها. وهنا يؤكد الامام –عليه السلام– بالقسم لا يمكنه أن يستسلم لهم مهما كلف الامر، وإن كانت حياته، مستعملاً عبارة (لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل) كناية عن ذل الاستسلام، وعبارة (ولا أُقِرُّ إقرار العبيد) كناية عن عدم امتلاكهم زمام الامر؛ كالعبيد. كما نستشف منها استعماله لـ(لا النافية) مرتين، فالجملة هنا خبرية ولكنها اعطت معنى الانشاء، وكذلك نجده استعمل العبارتين (اعطاء الذليل) و(اقرار العبيد) وهما كناية عن الاستسلام المهين، وهذا مما يرفضه الامام –عليه السلام– ، ثم يقوم الامام –عليه السلام– بعرض السلام عليهم بطريقة عادلة قائلاً: (أيها الناس! إذا كرهتموني فدعوني أنصرفْ عنكم الى مأمني من الارض!)، فعبارة: (مأمني من الارض) كناية عن المكان الآمن بالنسبة له، فاختار صيغة اسم المكان (مفعل) على الفعل (أمِنَ) فصار اسم المكان مكاناً وهو (مأمن).

وها هو قيس بن الاشعث يطلب من الامام –عليه السلام– أن يذهب الى عبيدالله بن زياد ويبايع يزيداً فعدّ الامام –عليه السلام– هذا الامر فيه إهانة وذلة يأباها، فاستعماله للقسم قد أعطى المعنى قوة بلاغية وكذلك تكرار استعمال المفعول المطلق.

٧١– م. ن.: ص ٢٣٩
٧٢– م. ن.: ص٢٣٩

كما ينذرهم مما سوف يقع عليهم بعد ذلك في قابل الايام، عندما يتسلط الطغاة، فيقوموا بقتلهم والتمثيل بهم، إذ عنى بذلك يزيد بن معاوية وعبيدالله بن زياد، فاستعمل هنا عبارة (فإنكم لا تدركون منهما الا بسوء عمر سلطانهما كله)، فاستعمل الكناية (عمر سلطانهما) أي؛ في مدة حكمهما. كما استعمل الكناية في قوله: (ويرفعانكم على جذوع النخل) أي؛ يصلبانكم فوق جذوع النخل.

أما في الطرف الآخر نجد الاستخفاف بالقيم والمثل العليا في كلامهم، كقول عمر بن سعد للحر الرياحي بعد أن سأله الحر عن مدى جديته في قتال الحسين –عليه السلام– فقال عمر: (إي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي!) [٧٣]. نجد عمر بن سعد قد وظف الكناية في وصفه لشراسة القتال من سقوط الرؤوس والأيدي مؤكداً عزمه على قتال الحسين –عليه السلام– مهما كلف الامر.

ولو تأملنا أبيات الحر الرياحي –رحمه الله– وهو يصف نفسه بـ(مأوى الضيف) فهذا التعبير كناية عن الكرم، والكناية الأخرى هي: (أضرب في أعراضهم بالسيف)[٧٤] وهذا التعبير للدلالة على الشجاعة الفائقة والأعراض من (العرض عكس الطول).

ويستعمل الامام الحسين –عليه السلام– الكناية في تعبيره (ربِّ إن تك قد حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير)، فحبس النصر يعني؛ امتناعه، والمراد من هذه الكناية، أنه تعالى اقتضت حكمته أن يستشهد الامام –عليه السلام– بهذه الطريقة، وامتناع النصر من السماء بمعجزة الهية. إذ من المؤكد أن يكون أدب الدعاء عند الامام الحسين –عليه السلام– يحمل بلاغة وايجازا بحيث يستحسنه المتلقي، اذ يوجز حين يتطلب الأمر ذلك، ويطنب عندما يكون الامر يتطلب الاطناب. إذ دعا ربه بأن ينتقم من القوم الظالمين. و كما هو معلوم أن من القيم النبيلة التي يشترك بها جميع الناس هي؛ عدم اشتراك أكثر من واحد على قتل شخص واحد، ولكن ما حصل في كربلاء أنهم اجتمع عدد كبير من الجيش الأموي على قتل شخص واحد وهو الامام الحسين –عليه السلام–، عند ذلك لجأ الى ربه ويدعو على هذه الفئة الضالة التي نكثت العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم، ولو أمعنا النظر في كلمات هذا الدعاء نجد الامام –عليه السلام– قد استعمل الكناية في قوله؛ (اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الارض، اللهم فإنْ متَّعْتهم الى حين، ففرقهم فرقاً، واجعلهم طرائق قددا ولا ترضي عنهم الولاة أبداً، فانهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا فقتلونا!)[٧٥] كناية عن جدب الارض بسبب عدم نزول الامطار، وبالتالي حصول المجاعة، ومن الصور البيانية التي تطالعنا في هذا المقطع البلاء المتوقع لقوم خذلوا ابن بنت رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، فعدم رضى الولاة عنهم يعني السخط الذي يؤدي بالنتيجة الى مزيد من تسلط الطغاة عليهم ولا يستطيعون حماية أنفسهم منهم.

ويمكن أن نلمح الكناية وقد وظفها بشكل جميل وهب النصراني عندما أقبل نحو القوم يرتجز قائلاً[٧٦]:

إن تنكروني فأنا ابنُ كلبٍ	حسْبيَ بيْتي في عُلَيْمٍ حسْبي
إني امرؤٌ ذو مِرّةٍ وعصْبٍ	ولستُ بالخوّار عند النكبِ
إني زعيم لك أم وَهْب	بالطعن فيهم مقدِماً والضربِ

٧٣– م. ن.: ص٢٤٥.
٧٤– م. ن.: ص٢٦٦.
٧٥– م. ن.: ص٢٨٩
٧٦– م. ن.: ص٢٥٠

ضربَ غلامٍ مؤمنٍ بالربِّ

تجسدت نجدته وصلابته في مواجهة القوم، عبر هذه الابيات، ونجده قد استعمل الكناية في قوله: (اني امرؤ ذو مِرّةٍ وعصبٍ) كناية عن القوة والشدة، وعبارة (ولستُ بالخوّار عند النكبِ) أي لست ضعيفاً، أو جباناً، خائفاً، عندما تمر بي النكبات.

٣- التشبيه: هو الدلالة على مشاركة أمرٍ لآخر في معنى، كقولك؛ زيدٌ كالاسد، أي أن زيداً يمتلك قوة وشجاعة كالاسد، ويمكن حذف أداة الشبه فتقول؛ زيدٌ أسدٌ، وهذا يعني أننا وصفنا زيداً شجاعاً، فهذا التشبيه يرتكز على أركانٍ أربعة؛ المشبّه والمشبّه به ووجه الشبه وأداة التشبيه، فالمشبه هو زيد، والمشبه به الاسد، واداة التشبيه هو حرف الكاف، ووجه الشبه هو الشجاعة أو القوة. وقد يأتي المشبه به مركباً [٧٧].

ففي خطب الامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه، قليلاً ما نجد للتشبيه استعمالاً، فعندما تحدث زهير بن القين مع الاعداء، وأكثر من الحديث معهم، ولكن القوم لم يستجيبوا له بل أساؤوا اليه، عند ذلك أقبل عليه الإمام الحسين -عليه السلام- وقال لزهير: (أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ، لو نفع النصح والابلاغ) [٧٨] التي يشبه فيها زهيراً بمؤمن آل فرعون، فاستعمل الإمام -عليه السلام- التشبيه لتقريب الصورة لذهن المتلقي، وفي الوقت نفسه، أعدُّه كرامة وثناءً لزهير بن القين، لأن الامام قد شبهه بمؤمن آل فرعون. ويبدو أن هذا الموضع الوحيد من خطب الامام الحسين- عليه السلام- وجدت فيه التشبيه.

(٢)علم البديع: هو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. وهذه الوجوه ضربان؛ ضرب يرجع الى المعنى، وضرب يرجع الى اللفظ. أما المعنوي فمنه المطابقة. وتسمى الطباق، والتضاد أيضاً، وهي: الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة كقوله تعالى: (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود)[٧٩].

١- الجناس: هو تشابه لفظين في اللفظ، والتام منه: أن يتفقا في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها، فإن كانا من نوع واحد -كإسمين- سمي مماثلاً، وإن كانا من نوعين -كاسم وفعل- سمي مُسْتَوْفى [٨٠].

ومن القيم العظيمة التي نجدها في كلام أبي عبدالله الحسين -عليه السلام- وقوفه صبيحة يوم عاشوراء أمام الحشود الكبيرة التي جاءت لقتاله، وهو ثابت العقيدة بعيد عن التزلف لأحد لا يخشى في الله لومة لائم، إذ وقف أمامهم بكل عزيمة واصرار، يدعو الله تعالى بهذا الدعاء: (اللهم أنت ثقتي في كل كربٍ، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعُدة، كم من همٍّ يضعُفُ فيه الفؤاد وتقلُّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمتُ فيه العدو، أنزلتَهُ بك وشكوتُه، رغبة مني عمّن سواك، ففرّجته وكشفته، فأنت وليُّ كل نعمة، وصاحبُ كل حسنة، ومنتهى كل رغبة) [٨١]. إذ تضمن دعاء الامام -عليه السلام- الجناس في

٧٧- الايضاح -الخطيب القزويني- ص٢١٧
٧٨- وقعة الطف ص ٢٤٥
٧٩- الايضاح للقزويني ص٣٤٨، والآية القرآنية ١٨ من سورة الكهف.
٨٠- الايضاح للقزويني ص٣٦٦، وينظر جواهر البلاغة ص٣٦١
٨١- وقعة الطف: ص٢٣٦

الالفاظ؛ (ثقتي، ثقة) و (شدة، عدّة) و (كم، هَم) وجاءت على لسان الامام –عليه السلام– من دون تصنّع. كما نجد الجناس في كلمتي: (السراء، الضراء) الواردة في خطبة الامام –عليه السلام–؛ (وأحمده على السراء والضراء)[٨٢].

وفي خطبة الحر لجيش الأعداء؛ (أيها القوم! ألا تقبلون من حسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟ قالوا: هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه. فكلمه بمثل ما كلّمه به قبلُ، وبمثل ما كلّم به أصحابه. قال عمر بن سعد: قد حرصتُ، لو وجدتُ الى ذلك سبيلاً فعلتُ)[٨٣]، نجده يستعمل الجناس الناقص في الالفاظ: (خصلة، الخصال)[٨٤]، بعد أن ضمّن حديثه القيم الانسانية، عبر نصحهم، وتحذيرهم من مغبة الانزلاق الى مستنقع الرذيلة، في محاربتهم لابن بنت نبيهم.

ولو بحثنا في خطب أصحاب الامام الحسين –عليه السلام– عن تمثلات القيم في خطبهم الحماسية أمام أعدائهم، نجد هذا الغلام الكلبي وهب النصراني الذي أقبل نحو القوم يرتجز قائلاً[٨٥]:

إن تنكروني فأنا ابنُ كلبٍ	حسْبيَ بيْتي في عُلَيْمٍ حسْبي
إني امرؤٌ ذو مِرّةٍ وعصْبٍ	ولستُ بالخوّار عند النكبِ
إني زعيم لك أم وَهْبٍ	بالطعن فيهم مقدِماً والضربِ

ضربَ غلامٍ مؤمنٍ بالربِّ

الثبات والشجاعة، من القيم السامية التي امتاز بها أصحاب الحسين –عليه السلام–، فهذا الغلام الكلبي الذي لم تخيفه كثرة الاعداء، وعلى الرغم من حداثة سنّه، لكنه استبسل ووقف يناجز القوم وقتل عدداً منهم، فقيمة الشجاعة والبطولة، تجسدت فيه إضافة الى نجدته وصلابته في مواجهة القوم، كما نجده قد استعمل الجناس الناقص، في كلمتي؛ (أضرب، أضربهم)، إذ وظف الجناس لتحقيق هدف آخر وهو؛ الفروسية، والتمرس في القتال.

٢– الطباق: ورد الطباق في الخطبة الاولى للامام –عليه السلام– ليلة عاشوراء وقد أظهر العبودية لله تعالى، حامداً ومثنيا عليه، وهذه من القيم الراقية التي يجب على العبد أن يتحلى بها تجاه معبوده، ففي عبارة؛ (وأحمده على السراء والضراء)[٨٦]، قد استعمل الطباق في (السراء، الضراء)، إشارة الى التناقضات في الحياة التي قد تصيب الفرد، فيكون ممن استعان بالله الواحد، يحمده ويثني عليه، دون جزع ويأس، بل بكل عزيمة وإصرار، كما في بداية هذه الخطبة له –عليه السلام– ليلة عاشوراء لأصحابه قائلا: (أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين، وجعلتَ لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين) [٨٧]. إذ قام بعدِّ نعم الله عليه، من سمع، وبصر، وأفئدة، وينتهي بالدعاء والشكر لله تعالى على نعمة عظيمة،

٨٢– م. ن.: ص ٢٢٧
٨٣– م. ن. ص٢٤٨
٨٤– م. ن.: ص ٢٤٧
٨٥– م. ن.: ص٢٥٠
٨٦– وقعة الطف –: ص ٢٢٧
٨٧– وقعة الطف لابي مخنف ص ٢٢٧

ألا وهي؛ لم يجعله من المشركين، إذ يشير عبرها الى الآية القرآنية؛ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(٨٨).

الخاتمة

في نهاية المطاف لابد من التذكير بأن واقعة الطف الخالدة زاخرة بالمواقف، وتكشف صور القيم النبيلة للامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه، كالمروءة والشجاعة والكرم والحمية والغيرة على الدين والعرض ومحض النصيحة ولو كان الطرف الآخر عدوه، وعلى النقيض من ذلك لم نجد من هذه القيم لدى الاعداء سوى الحقد والقسوة والشتائم والشماتة وقتل الأسرى كما حدث مع نافع بن هلال الجملي، فتمثلت هذه القيم العظيمة بين أحرف خطب وكلام الامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه مع أعدائهم. وعند دراستي لتمثلات هذه القيم في خطب وكلام الامام الحسين -عليه السلام- وأصحابه وجدت الامام الحسين -عليه السلام- استطاع أن يبرز هذه القيم النبيلة، على سلوك أصحابه، الذين ذابوا فيه، واستلهموا معاني البطولة والفداء والايثار منه -عليه السلام-، ومن الملاحظ أنه كان يوجز في موضع يستوجب الايجاز، ويطنب في المواضع التي يستوجب الاطناب لشرح بعض الامور المتعلقة. فضلاً عن استعماله لفنون علم المعاني، من استعماله التوكيد بـ (إنّ) والقسم ولام التوكيد لغرض لفت نظر المتلقي، ومن جانب آخر نجده استعمل في علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية لتأكيد المراد بأبلغ صورة للمتلقي، أما فنون علم البديع فكانت قليلة نسبياً لأن الموقف لم يكن يحتمل التأني في اختيار الالفاظ والعبارات، بل كان الامام -عليه السلام- وأصحابه يركزون على المعاني والحجاج مع الخصوم لذا فاستعمال الطباق كان محدودا، قياساً بالجناس الذي كان أكثر منه.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أساس البلاغة -جار الله الزمخشري- تحقيق: محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية- بيروت - ط ١ - ١٩٩٨.
٣. أسرار البلاغة- عبد القاهر الجرجاني- دار المعرفة- بيروت- ١٩٧٨.
٤. أصول المقتل الحسيني- الشيخ عامر الجابري- مؤسسة وارث الانبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية- ط١- ٢٠١٥.
٥. الأغراب - الحديث الرابع من حديث شعبة بن الحجاج وسفيان الثوري- النسائي ت٣٠٣هـ - تحقيق: أبو عبد الرحمن محمد الثاني- ط١- ٢٠٠٠م- دار المآثر- المدينة النبوية.
٦. الايضاح في علوم البلاغة- الخطيب القزويني- دار الكتب العلمية- بيروت
٧. جواهر البلاغة- احمد الهاشمي- ط ١٢ - دار احياء التراث العربي- بيروت.
٨. الذريعة الى تصانيف الشيعة- العلامة الشيخ اقا بزرك الطهراني. ج٢٢- ط٢- دار الأضواء- بيروت.

٨٨- سورة إبراهيم٣٤

٩. سير أعلام النبلاء– القاضي شمس الدين الذهبي ت٧٤٨هـ– تحقيق: حسين الأسد– ط١١مؤسسة الرسالة.
١٠. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس– إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى: ١١٦٢هـ)– مكتبة القدسي– القاهرة – ١٣٥١ هـ.
١١. لسان العرب لابن منظور– اعداد يوسف خياط – دار صادر – بيروت.
١٢. المعجم الفلسفي –جميل صليبا– مركز توزيع ذوي القربى– قم – ايران – ١٩٨٥.
١٣. مقتل الأصبغ بن نباتة التميمي الكوفي أقدم المقاتل الحسينية– الشيخ عامر الجابري– مقال في صفحة وارث الانبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية– التابعة للعتبة الحسينية المقدسة.
١٤. وقعة الطف لأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي ت١٥٧هـ – تحقيق: الشيخ محمد هادي اليوسفي– المجمع العالمي لأهل البيت ع– ط٣– دار التعارف — بيروت– ٢٠١٢ م.

الرسائل والأطاريح

١– (السرد في مقاتل الامام الحسين –عليه السلام– حتى نهاية الدولة البويهية سنة ٤٤٧هـ) رسالة ماجستير– للطالبة زهراء عبد الحميد غالي– جامعة كربلاء– كلية التربية للعلوم الإنسانية– قسم اللغة العربية– ٢٠١٨.
٢– القيم الروحية في شعر عمر بهاء الدين الأميري– وائل مصباح محمود العريني–رسالة ماجستير– الجامعة الاسلامية – غزة– كلية الآداب– قسم اللغة العربية– ٢٠٠٧.